بعض من ملامح النشاط التجاري والنظم السياسية لعرب جنوب شبه الجزيرة العربية في بداية عصر التدوين

د. مهيوب غالب أحمد*

قامت في الزاوية الجنوبية الغربية من قارة أسيا وتطورت حضارة عربية أستمرت آلاف السنين ونسجت عند ملتقى الألف الثاني والأول ق.م وحتى منتصف الألف الميلادى الأول علاقات تجارية مع مناطق العالم القديم آنذاك، ولكن هذه الحضارة لم تدرس بشكل واف مع أن الحفريات الأثرية بدأت في السنوات الأخيرة بالتنقيب وبشكل مكثف عن كنوزها في المحافظات الشرقية والشمالية الشرقية في أراضي الجمهورية اليمنية ، وفي مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية.

وقد تميزت حضارة بلاد العرب الجنوبية عن سواها من حضارات العالم القديم بميزتين رئيستين ، الأولى : إنها سيطرت لأكثر من ألف عام على تجارة البخور والطيوب . تلك السلع التي حظيت بإقبال شديد في بلدان العالم القديم ، حوض البحر المتوسط ومصر وبلاد الهلال الخصيب. والثانية : هي أن بلاد

* استاذ مساعد ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والألسن ، جامعة ذمار

العرب الجنوبية ، أتبعت في نظام حكمها أسلوب الدورة الإنتخابية للحكام ، وهو ما يشبه– إلى حد كبير – أنظمة بعض بلدان العالم المتمدن حالياً ، وحصرت الحكم في كل من سبأ وقتبان– على مدى حوالي 700عام – بين قبائل محدودة كانت تتداول السلطة فيما بينها وفق نظام صارم لا يمكن الخروج عنه.

ولا بد كذلك من إعطاء صورة تنويرية عن طرق القوافل التجارية البرية منها ، والتي كانت تقطع شبه الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال وعلى العكس والبحرية بعد إكتشاف نظام الرياح الموسمية الجنوبية (التجارية) التي ادت الى تحول طرق القوافل التجاريه من البر الى البحر, الامر الذي اثر سلباً على المدن العربية الجنوبية الداخلية التي كانت تنتفع من ضرائب مرور تلك القوافل ، مثل مدن سبا ومعين ، وكذلك المطامع الأجنبية من أجل السيطرة عليها.

تجارة البخور عند العرب الجنوبيين والأطماع الأجنبية للسيطرة عليها

شبهت المستشرقة الروسية نينا بيجولفسكايا (NINA PIGULEVSKIA) بلاد العرب الجنوبية بأنها (نقطة مرور في طرق القوافل التجارية)[1] ولربما عكس هذا التشبيه – إلى حد كبير – موقع العربية الجنوبية فيما يتعلق بطرق القوافل التجارية الدولية القادمة من مناطق حوض المحيط الهندى وشرق أفريقيا والمتجهة نحو بلدان الهلال الخصيب وحوض البحر المتوسط، التي حملت البخور والطيوب والتوابل، وهي سلع كان لها إقبال شديد في مناطق العالم القديم ، ولم يمارس سكان العربية الجنوبية مهنة تجارة تلك السلع ومرافقة القوافل التجارية فقط ، وإنما زاولوا النشاط الزراعي والعناية بأشجار البخور واللادن والمر والطيوب الأخرى والتي كانت تغطي مساحة كبيرة من بلاد العرب أنفسهم وكذلك الجزر المجاورة ، مثل جزيرة سقطرى .

تقع غابات أشجار البخور شرق المملكة الحضرمية في أقليم ظفار[2] .وكانت المنطقة يملكها أفراد الأسرة المالكة الحضرمية ، الذين بلغ عددهم ما بين ألفين وخمسمائة إلى ثلاثة آلاف نسمة حسبما ذكر بلينوس (PLINUS) الأكبر في كتابه التاريخ الطبيعي (NATURAL HISTORI) وكانت مغلقة أمام الزائرين. وكان يتم جمع المحصول مرة أو مرتين في العام ، يقوم به أفراد مسجونون ومحكومون بتهم مختلفة.

وكان أولئك الأفراد يتعرضون للموت بعد موسم أو أكثر نظراً لإنتشار الأوبئة والأمراض– كما لزواحف والبعوض والحشرات الأخرى– في منطقة الإنتاج . ينقل المحصول بعد جمعه عبر منفذين أو ثلاثة إلى الحاضرة الحضرمية شبوه. ثم يُبدأ فتح المزادَ للبيع في السوق العام– هناك – فإذا ما بيعت البضاعة عبئت في أكياس جلدية بعد خصم ضرائب المعبد ، ومن ثم تنقل على ظهور الجمال إلى "تمنعاً" حاضرة القتبانيين أو إلى " قرناو" حاضرة المعينيين التي يصل إليها تجار من غزة ومصر وجرهاء ، وإذا ما ابتاعوا بضاعتهم التي يريدونها قفلوا راجعين إلى مناطقهم.

منذ منتصف الألف الأول ق.م أصبح المعينيون هم الذين يرافقون القوافل التجارية من المنبع أو موانئ الوصول حتى سوق الإستهلاك ، وتمكنوا من إزاحة التجار الأجانب ليحلوا محلهم في القيام بالعمليات التجارية الداخلية والخارجية.

وهكذا هو الحال بالنسبة للبخور الذي ينتج في الأراضي القتبانية ، إذ يتم جمعه وإرساله إلى تمنعاً– وفيها وجد سوق عرف بأسم سوق شمر– ويفتح المزاد هناك– للبيع. وعند اتمام البيع ودفع الضرائب المستحقة للملك والمعبد يعطي التاجر المشتري ترخيص شحن ونقل البضاعة واخراجها من البلد إلى مناطق الإستهلاك. ولغرض تنظيم العمليات التجارية في سوق شمر، صدر مرسوم ملكي يعرف بأسم قانون قتبان التجاري[3].

وجوهر هذا المرسوم أنه ينظم حقوق الدولة القتبانية وحقوق التجار في مدينة تمنعاً سواء كانوا قتبانيين أم أجانب. وعلى التاجر الذي يدخل الحاضرة القتبانية أن يخضع لإجراءات وإلا فلن يتمكن من مغادرة (تمنعاً) للمتاجرة .وقد سلكت القوافل التجارية عبر أراضي بلاد العرب الجنوبية من الجنوب إلى الشمال وفي مناطق محددة– طرقاً لا يمكن الخروج عنها ، نظراً لوجود الخدمات الضرورية لمرورها – أمنية وغذائية ووجود طرق معبدة..الخ. فإذا كانت البضاعة قادمة من خارج البلد أي عبر البحار فإنها ترسو في ثلاثة موانئ ، أحدها ميناء قنا في الأراضي الحضرمية والأثنان الأخران ميناء موزا وميناء عدن في الأراضي القتبانية والسبئية. ولابد من مرور القوافل القادمة من موزا وعدن إلى تمنع ، ومرور القوافل القادمة من قنا إلى شبوه ، يتجه بعد ذلك خط السير من شبوه إلى تمنعاً–بشكل صارم– ومن هناك إلى مأرب وقرناو ونجران ومنها إلى قرية (المستوطنة السبئية في وادي الدواسر وسط الجزيرة العربية). وتتفرع من هناك إلى فرعين: إما شرقاً نحو الخليج إلى بلاد الجرهائيين ومنها بمحاذاة الساحل الشرقي لنتليج حتى مصب الفرات ومن ثم إلى بلاد الهلال الخصيب ، وإما شمالاً بمحاذاة الشاطئ الغربي لشبه الجزيرة العربية إلى يثرب ومنها إلى أيلة ثم إلى غزة ومصر ومناطق حوض البحر المتوسط [4].

ونتيجة لوقوع أراضي إنتاج البخور و الطيوب ضمن مملكتي حضرموت وقتبان جعلا هدفا لأطماع جارهم الشمالية مملكة سبا. حيث بدأت تتطلع إلى الإستيلاء على أراضي تلكما المملكتين أو إحداهما في الأقل كي تؤمن لنفسها – إلى جانب ضرائب مرور التجارة في أراضيها – مصدر دخل ثابت ومضمون من إنتاج وبيع البخور. مما أدخلها في صراع مكشوف مع قتبان بادئ الأمر ثم تطور بعدها إلى صراع بين مملكة سبأ من جهة وكل من معين وحضرموت وقتبان من جهة أخرى . ومن ثم أضعف هذا الصراع كل الأطراف، مما هيأ الفرصة لبروز قوى جديدة في الساحة ، انفصلت عن قتبان وسبأ هي المملكة الحميرية ، التي سيطرت على البلاد كلها طيلة ثلاثة قرون قبل ظهور الإسلام.

واجهت ممالك العرب الجنوبيين إلى جانب صراعها الداخلي مشاكل خارجية كثـيرة ، ابرزهـا سعي الإغريق ورغبتهم في مشاركة العرب في الإنتفاع بتجارة البخور والطيوب وبقية التوابل عن طريـق البحر الأحمر ، وامتداداتها التجارية في المحيط الهندي أو احتكارها وحرمانهم منها. ومنذ عـهد الأسـكندر المقدوني ، ازدادت هذه الرغبة اكثر فاكثر الى السيطرة على تجارة العرب وأحتكار تجارة الهـند، وتحديـدا بعد استقراره في بابل . فأرسل في عامه الأخير ثلاث بعثات بحرية كبيرة تجوب البحار وتتعرف على افضـل المناطق القريبة من السواحل التي تحيط بشبه الجزيرة العربية، وكذا ملاءمتها للملاحة البحرية .

وبدأت هذه البعثات الملاحية رحلتها من الخليج العربي ، ولكنها لم تتقدم كثيرا، وكـانت اكـثر هذه البعثات نجاحاً هي تلك التي تراسها هيرون ((Hieron)) إذ وصلت حتى رأس الخيمـة ((Maket)) . اما البعثات التي ارسلها الاسكندر المقدوني من مصر عن طريق البحر الاحمر فقد فشلت.

وبعد وفاة الأسكندر المقدوني بدأ تقاسم قادته العسكريون الامبراطورية التي اسسها.وكان مـن نصيب البطالمة ولاية مصر. وبذلك بدأ هؤلاء بدراسة السواحل المطلة على البحر الاحمر ، تنفيـذاً لرغبـة قائدهم الاسكندرالتي لم تتحقق في حياته ، ومن ثم لتحقيق مصالحهم في هذه المنطقة مـن العـالم القـديم[6] ويمكن إيجازالمرحلة الأولى هذه في دراسة طرق الملاحة البحرية بما يلي :

أ–أرسل أحد البطالمة ربما بطليموس الأول(PTOLIMUS) أو الثاني أحد قادته ، والـذي كـان يدعى أريستون (Ariston) في بعثة أستطلاعية للتعرف على سواحل بلاد العرب وطرق الملاحة في بحارهـا، فطاف بجزء كبير منها. وعند عودته الى مصر قدم تقريرا مفصلا إلى دولته عما شاهده في رحلته تلك[7].

ب–جددت في عصر البطالمة بعض الموانئ المصرية على البحر الأحمر ، وأنشئت موانئ أخـرى ، حتى تستعد لأستقبال المزيد من تجارة البحر وتصديرها بعد إعادة شحنها مـن خليـج السـويس (مينـا أرسينوي – ARSINI) ، وميناء (ميوس هرميوس – MIO HERMOS) قرب ميناء القصير الحالي وميناء (برينيكى – BRINIKI) إلى الشرق من أسوان[8] .

ج–تأمين السيطرة على خليج العقبة لكونه منفـذ تجـارةالبحر الاحمـر(عـن طريـق ايلـة في الشمال) والمتجهة برا الى بلاد الشام وما وراءها .

د– الاهتمام بالتواجد الحربي وزيادته في البحر الأحمر لتأمين السفن التجاريـة فيـه، وتشـجيع الوسطاء للتعامل معها، وصرفهم عن الإعتماد على نقل بضائعهم عن طريق السفن التجارية التي أمتلكـها أو أشرف عليها العرب الجنوبيون والشماليون في شبه الجزيرة العربية ، فضلاً عن نشـر نقـاط الحراسـة الثابتة على طول حوض البحر الأحمر.

هـ- تشجيع من يرغب من الأغريق على الإستيطان في موانئ البحر الأحمر و الجزر المنتشرة جنوبه وفي خليج عدن , وقد تكاثرت تلك العناصر الاغريقية وواصلت استيطانها حتى سقطرى في البحر العربي.وقد شاركت العرب والهنود في سكناهم وفي نقل تجارة الهند وتجارة سواحل شرق أفريقيا.

أدت تلك الخطوات المتابعة إلى نتيجتين مختلفتين على المدى البعيد بالنسبة لدول جنوب شبه الجزيرة العربية ، فأنتفع بها أهل السواحل وأزدهرت موانئهم الجنوبية والجنوبية الغربية ، مثل ميناء قنا في حضرموت وميناء عدن وميناء موزا في المنطقة التي تقاسمتها كل من قتبان وأوسان وسبأ(ثم ورثتهما حمير فيما بعد)، بينما تأثرت أقتصاديات الدول العربية الجنوبية الداخلية (سبأ ومعين ونجران وكندا) التي أعتمدت على ضرائب وخدمات قوافل الطرق البرية ، ولا سيما الطريق الرئيسي الممتد من جنوب شبه الجزيرة عبر الحجاز حتى العقبة وما وراءها في جنوب بلاد الشام وسيناء ومن ثم إلى مناطق الإستهلاك الأخرى، وإن ظل هذا التأثير في البداية محدوداً.

كان أهتمام البطالمة ينصب على أن تصلهم سلع البخور والطيوب والتوابل الأخرى من مصادرها مباشرة من غير وساطة العرب. أي أن رغبة البطالمة هي أن يحصلوا على سلع الهند وشرق أفريقيا مباشرة من غير أن يكون للعرب دور في ذلك عبر الطريق البحري من الموانئ الهندية والأفريقية إلى الموانئ المصرية مباشرة . حينئذ وجهوا جل أهتمامهم كي تصل سفنهم إلى هناك . وإن كان لابد من المرور بالموانئ العربية الجنوبية ، فذلك من أجل التزود بمياه الشرب والمواد الغذائية[9] .

وسجل الباحثون أولى الرحلات التي نجحت في تحقيق هذه الرغبة . ترأسها البحاره الاغريقي الذي كان يدعى (يودوكس الكيزيكي EudKs of Cy-cus)[10] ،وبلغ بهذه الرحلة الهند حوالي عام 117ق.م.ثم تعددت بعد ذلك الرحلات الأغريقية والبطلمية، وتمكن القبطان الأغريقي (هيالوس Hippalus) الاهتداء الى إستخدام نظام الرياح الموسمية الجنوبية (التجارية)خلال الصيف ، (من يونيو إلى أكتوبر) في تقصير أمد الرحلة من البحر الأحمر إلى سواحل الهند في عرض المحيط مباشرة من غير الإلتزام بخطوط السواحل الطويلة . وبعد البطالمة ظهر منافس اكثر دهاءً منهم ، تمثل في طموح الرومان في عهد الإمبراطور أغسطس الذي أصبح يسيطر على أغلب مناطق العالم القديم من غير منازع منذ أواخر القرن الأول ق.م. ولم يكتف أغسطس (AUGUST) بالنشاط العادي الذي يقوم به أعوانه الأغريق في تجارة الهند والبحر الأحمر ، ولكنه أراد أن يقصي العرب عن هذه التجارة بالكامل أو أن يجعلهم تابعين له في العمل لصالحه فيها، أو أن يسيطر على أراضيهم بجيوشه. وكانت الصورة الأسطورية التي أشاعها الرحالة والمؤرخون الإغريق والرومان في عالمهم الغربي عن ثراء العرب ، قد شجعت هذه الرغبة في الغزو والسيطرة على بلاد العرب الجنوبية.

فقد كتب الرحالة الجغرافي أسترابون (STRABO) في عصره يقول : ((إن السبئيين كانوا أكثر ثراء نتيجة لتجارتهم في المواد العطرية . ولهذا توفرت لديهم كميات كبيرة من مصنوعات الذهب والفضة ، كالأسرّة والموائد الصغيرة والأواني والكؤوس فضلاً عن قصورهم الرائعة التي كانت أبوابها وجدرانها وسقوفها مختلفة الألوان ،ويرصعون بعضها بالعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة ..الخ))[11] كان هذا التصوير كافياً لأثارة أطماع الرومان الطموحين إلى السيطرة على التجارة الشرقية بأكملها . وبذلك كان هدف الإستيلاء على جنوب شبه الجزيرة العربية بالنسبة للرومان يعني السيطرة على البحر الأحمر كله وتحويلة الى بحيرة رومانية ، ليتم السيطرة على مناطق انتاج البخور وطرق تسويقه[12] . ولم يعدم الرومان من تقديم المبررات لأطماعهم ، وقد صور أسترابون بعضها فأدعى أن أهل العربية السعيدة[13]، كانوا يحصلون على أرباح هائلة من تجارتهم مع الأغراب الإغريق والرومان. فلا يتركون لهم ولا للبلاد التي ينقلون تجارتهم إليها مجالاً للكسب أو الثراء[14] وهكذا صدر أمر الإمبراطور أغسطس إلى نائبه في مصر اليوس جالوس (AUIUS GALUS) للقيام بمهمة (تأديب العرب) أو احتلال أراضيهم. وكان ذلك تحقيقاً لحلم قديم كان قد راود الإغريق قبل الرومان منذ ايام الإسكندر الأكبر فترأس جالوس الحملة العسكرية الرومانية من مصر وأنطلق منها من ميناء برينيكي(BRINIKI)– شرق أسوان– عبر البحر الأحمر حتى ميناء لويكي كومي (Leuke Kome). وقد وصلت القوات الرومانية اليه بعد خمسة عشر يوماً من الرحيل في البحر . ولنا ان نتصور مقدار الأهوال التي لقيتها تلك القوات . كان عدد القوات يبلغ حوالي 130 سفينة (تاريخ الحملة كان عام 24/25 ق.م.، وبعضهم يرى انها كانت بين عامي 25/26ق.م)[15]، وفي ميناء لويكي كومي(ينبع الحالية) أنضم إليه عدد من اليهود ومن بينهم عرب الأنباط بقيادة شخص كان يدعى صالح . فقد كان اغسطس يعلق اهمية خاصة على حليفه ملك الأنباط عباده الثالث في تزويده بقوات لها معرفة بالبلد ومسالكها . قد كان العرب الأنباط واليهود حوالي (1500فرد)[16]. سلك جيش جالوس بعد ذلك طريقاً برياً بمحاذاة ساحل الحجاز وقامة في طريقها الى جنوب شبة الجزيرة العربية ، وخربت الحملة في طريقها مدناً كثيرة. وعندما وصلت إلى الجنوب بدأت بتخريب مدن مملكة معين التي أصبحت سبأ مسؤولة عنها فيما بعد . وروى أسترابون–الذي رافق الحملة– أن (يثل) [17] فتحت أبوابها دون مقاومة حين أقتراب الرومان منها. ثم دمر الرومان مدن (نشق–البيضاء) (ونثان – السوداء) وكمنة (خربة كمنه) وحاصروا مدينة مأرب . لكن حملتهم باءت بالفشل ،ولم تستطع التقدم نحو مأرب إلا بمسافة بعيدة عنها. وفقدت كثيراً من سفنها ورجالها.

ونظراً إلى عدم توفر مصادر حول هذا الحدث ، فقد اعتمد الباحثون على معلومة استقوها من استرابون الذي حاول ان يلقي باللوم والمسؤولية على القائد النبطي بفشل الحملة الرومانية .

أسباب فشل الحملة:

يرجع أسباب فشل الحملة الرومانية إلى عدة عوامل ذكر أسترابون بعضها، منها عـــدم كفـاءة جالوس في قيادة قوة بحرية وتنظيم أسطولها، بحيث فقد كثيراً من سفنه قبل أن يصل بها إلى ميـنـاء لويكـى كومى. وإنفاقه أغلب وقته وجهده في إعداد جيش بحري لم يكن له ضرورة ملحة في حملته ، لأنه لم يكـــن من المنتظر أن يقاتله العرب في البحر، ثم سيره بجيشه عبر مسالك صحراوية وجبلية طويلة فيما بعد. تلـك المسالك تمتد إلى نحو 2000كم من الميناء المذكور حتى داخل أراضي العرب الجنوبيين . كما يعزو اسـترابون فشل الحملة الرومانية الى خيانة الوزير النبطي سابقاً . وكذلك قلة المياه خلال حصارها لمدينـــة مـأرب ، فضلاً عن تفشي الأوبئة بين صفوف قوات جالوس ، ومن ثم وصول تلك القوات الى مأرب منهكة القـوى بعد رحلة استمرت حوالي ستة اشهر ، وإذا زدنا شيئاً على ماسبق ذكـــره فـــهو يعـــود إلى التحصينـــات الشديدة للمدن العربية الجنوبية ومدينة مأرب تحديداً ، موضع الإعتبار .ثم المقاومة العربية الجنوبية للحصـلو الروماني ، والتي كان لها دور فعال في الحاق الهزيمة بالقوات الرومانية .واخيراً احتمال تفسير عدم اخـلاص الدليل النبطي للرومان ، ربما تشده الرغبة في الوفاء لبني عمومته العرب . ويبدو لنا واضحاً ان الجغـــرافي الإغريقي استرابون لم يرافق صديقة (قائد الحملة) اليوس جالوس في تلك الحملة الى اليمن – بدليل اهمالـه ذكر الكثير من المناطق ، ومن ثم الخلط الواضح بين اسماء بعضها ، مما يبدو انه استقى معلوماته مما سمعه مـن الجنود الرومان الذين شاركوا في الحملة[18] .

ومهما يكن من أمر هذه الحملة فأن ممالك العرب الجنوبيين بعد ذلك التـــاريخ عاشـــت فـــترة اضطراب سياسي، وربما كانت الحملة العسكرية الرومانية أحد أسبابه.مما أثر بصورة سلبية على سير حركة القوافل التجارية البرية التى كانت تجتاز أراضي العرب الجنوبيين والشماليين من الجنوب إلى الشمال وعلـى العكس . ومع أن إستمرار المدن الواقعة على السواحل (الجنوبيـــة الغربيـــة) في الإزدهـــار الإقتصـــادي والتجاري، إلا أن المدن الداخلية تأثرت بصورة ملحوظة جداً وتحولت عنها التجارة فيما بعد نهائياً.

وبدأت في الربع الثاني من الألف الميلادى الأول تنمو وتزدهر مدن الحجاز تجاريـــاً وأقتصاديـــاً– ظهر ذلك بجلاء في القرن السادس الميلادي – بسبب توفر عوامل أستقرار كثيرة ليس هنا مجال ذكرها.

مبدأ توارث السلطة لدى العرب الجنوبيين:

كان ذكر السبئيين في المصادر والأدبيات القديمة مرادف لذكر سكان بـــلاد العـــرب الجنوبيـــة بشكل عام. فحيثما يرد ذكرهم – هنا– أنما المقصود بذلك سكان المناطق الجنوبية . ذلك أن سبأ هي الـــتي أشتهرت وعلى مدى حوالي سبعمائة عام (من منتصف الألف الثاني وحتى بداية الربع الثاني للألـــف الأولى ق.م.) من غير سواها في مناطق العالم القديم ، أستناداً على ماجاء ذكره في حوليات الملوك الأشوريين ومـــا جاء في القرآن الكريم وكتاب العهد القديم. وقد ورد ذكر السبئيين في نصوص آشورية عام 720 ق.م.أثناء

حكم الملك سرجون الثاني وفي عام 695ق.م. أثناء حكم الملك سنحاريب ، وكلها تتحدث إما عن تقديم هدايا لأولئك الملوك من الحكام اليمنيين القدماء(تسلم بوساطة مرافقي القوافل التجارية) وإما عن تقديم أتاوات . ثم يأتي بعد ذلك ذكر السبئيين في القرآن الكريم وتحديداً بصورة جلية واضحة بسوريتي سبأ والنمل. على أنهم قوم لهم حضارة متطورة وذوو قوة وبأس وأن أمرهم شورى بينهم[19] وورد ذكر السبئيين في أسفار متعددة من كتاب العهد القديم، منها ما يشير إلى نسبهم ومنها ما يلقي الضوء على تجارتهم.[20] كما ذكر السبئيون في المصادر الوصفية الكلاسيكية ، مثل كتابات هيرودوت واسترابون وبلينوس وديودور الصقلي وغيرهم. وقد نقل استرابون عن روايات اراتوسفين : أن السبئيين جيران لبني معين من الجنوب ، ولمملكة حضرموت من الغرب ، ولأوسان من الشمال .وبذلك يكون قد حدد لنا الأراضي السبئية — بالضبط— في إحدى مراحل تاريخهم .

وعندما يتحدث أسترابون عن مبدأ توارث السلطة لدى عرب الجنوب ، يقول : المملكة عندهم— في العربية الجنوبية— يتوارثها ليس الإبن عن أبيه ، ولكن إبن شخص ما من النبلاء (الشيوخ أو الأشراف) أي الولد الذي ولد بعد بداية حكم الملك المنتهية مدة ولايته. وبعد تنصيب الشخص المعني في الحكم ،يضعون كشفاً بالنساء الحوامل من أفراد الطبقة الحاكمة ويتركون عليهن حراسة من أجل مراقبة من التي ستلد أولاً من تلك النساء ؟ وبموجب القانون يؤخذ هذا الوليد وتبدأ فترة تربيته على الطريقة الملكية باعتباره خلفاً مستقبلياً[21].

ويقف أمام الباحثين موضوع تأكيد هذه الحقيقة، والذي يجب أن يكون وفق معطيات المادة الأبيقرافية.[22] المعروف أن أسترابون أعتمد في أستنتاجاته تلك على معلومات أستقاها من أراتوسفين. فضلاً عما سبق ذكره تم وضع جدول زمني لتداول السلطة بين مختلف العشائر التي كانت تتولى الحكم في بلاد العرب الجنوبية.أن ذلك الترتيب الزمني الذي أخذ عن أراتوسفين لا يتطابق إلا مع ظروف وأنظمة مملكتين من ممالك العربية الجنوبية القديمة . تلكما الدولتان هما سبأ في مرحلتها المبكرة وبحدود أقل مملكة قتبان.

ولعل أبرز الصعوبات التي تواجهنا في تتبع ورصد سلسلة نسب ملوك اليمن القديم وأنظمة الحكم فيها هي قلة المصادر— والتي لا يمكن لأسباب كثيرة الإعتماد عليها بصورة نهائية – في تاريخ المنطقة كلها، ومع ذلك فأن ما هو متوفر لدى الباحثين، يسمح لهم بتقسيم تاريخ مملكة سبأ— مثلاً— إلى مراحل متعددة.أبرزها ما كان يعرف قبل عصرنا بأسم حقبة حكم المكاربة (أو المكربين) التي تنتهي على وجه التقريب عند منتصف القرن الثامن ق.م. وهي الحقبة التي تمتد من منتصف الألف الثانية ق.م. وفيها تم أرساء نظام قبلي كان يتوارث(أو يتداول) السلطة بشكل صارم، باعتبارها محصورة بين ثلاث قبائل رئيسة في سبأ. والقبائل هي : قبيلة حزفر كبير خليل وقبيلة حذمة وقبيلة فضخم. كانت هذه القبائل تستكمل

دورة تتداول فيها السلطة كل إحدى وعشرين سنة ، أي كل منها تأخذ فترة سبع سنوات بأستثناء مرة واحدة أستمرت فيها الدورة الكاملة سبعاً وعشرين عاماً[23]. ويفهم من النصوص أن عهود المكربين كانت تؤرخ أحداثها بنيابة شخص ذي صبغة دينية ، يلقب بلقب(Eponymos) وهو مصطلح يترجمه فريق من المختصين بأسم (رشو) ، أستخدم(Eponymos) من أجل وضع (أقرار أو تثبيت) ترتيب وتتابع للأحداث ، ولكن (Eponymos) كذلك هو أسلوب وضع كشف بأسماء أشخاص يؤدون في الوقت نفسه وظائف مختلفة : اقتصادية ودينية وحكومية مثل: إستخدام الأراضي وتخطيطها ، وتقديم القرابين للإلهة، وإقامة الحفلات الدينية ، والتعاويذ ، وبناء وتشييد المباني الحكومية ، والمعابد الدينية ، وقنوات الري ، والدفاعات العسكرية ، فضلاً عن إصدار المراسيم والقوانين .

وبموجب قانون توارث السلطة (أو تداولها)تم وضع سجل للمواليد وتحديد عمر كل جيل حسب الدورة الإنتخابية.

ووجد –أيضاً –نظام نقل السلطة بحسب الأجيال(وتحديداً بحسب عمر الطبقة) ، في دول شرق أفريقيا، كان يعرف بأسم"NDUGU" (أي الثبات مع أعطائه مسحة خارجية)[24] . لقد أستمر هذا النظام – هناك– حتى القرن التاسع عشر الميلادى.وإذا أخذنا في الأعتبار علاقات شرق أفريقيا القديمة مع العربية الجنوبية (اليمن القديم) فأنه في هذا يمكن " أن نلاحظ تشابهاً أكثر في تطابق بسيط تصنيفي"[25]. ونلاحظ– في قاعدة "NDUGU" تأثير مؤسسات الدولة القتبانية المباشرة. وبهذا الشكل يمكن نقل ما ظهر في أولى الدول الأفريقية الشرقية إلى الألف الأول ق.م. والتي أتجهت نحو التجارة الخارجية وحرمت من الدوافع الداخلية للتطور المستقبلي ، وعاشت حوالي ألفي عام من غير تغيير. وأقرت مبادئ غير عادية لتوارث السلطة في عدد من المجتمعات الأفريقية القديمة منها والحديثة ، وعدد من بلدان الشرق القديم. ويلاحظ فيها إما نقل السلطة حسب خط الأمومه واما (فرترنيتيت)[26] أي انتقال السلطة بحسب تسلسل الأخوان وأحياناً بحسب التسلسل العشائري.

وبالنظر إلى شجرة انساب السبئيين فأننا نرصد ثلاث مجموعات لأسماء العلم، وكذلك لألقاب تتكرر جزئياً أو كلياً في مختلف المجموعات ، وتمتلك خصائص متشابه في الإستعمال ، وبعضها – أو أكثرها– يمنع على العامة أستخدامها وتقتصر فقط على الحكام . ويستعملها الملوك وأعضاء مجلس الأعيان(الأشراف)وأعضاء الأيبونيم(الرشو) والقادة العسكريين ونواب الملك في الوحدات الإدارية الأخرى[27]. وتشبه– كما يبدو– النعوت الملكية الحالية والألقاب ،مثل صاحب السمو، جلالة الملك، ولي العهد والأمير وهكذا . وهذه الأسماء هي:–

1/القتبانية :- أ. الأسماء الممنوعة على أفراد العامة : شهر يدع أب ، وروايل ولربما سمح وتسر (Shryd b ,Wrwl and Smhwtr).

ب.الأسماء المتشابهة مع أسماء الملوك السبئية:- ذمار علاي ، وسمح علاي (Dmr ly and Smh ly).

ج.الأسماء العامة التي كانت تقابل أحياناً لدى أشخاص أخرين: هوف عم ، وينبطم (hwf'm and Ynbtm).

2/ الأسماء السبئية، وتنقسم إلى أسماء أباء ، وأسماء أبناء ، ثم أسماء متداراة عموماً وهي:- على التتابع أ.أب شبم ، وذرء كرب ، ويذمر وفارغ كرب، (bsbm,Drkvb,Ydmr MLK and Fr kb).

ب.مرثدم ، ونبط عم ، وهوف عثت ، وبعم ، ولربما وهب عم ، وشهرم (Mrtdm,Nbt'm,Hwf'tt,B'm,Whb'm and Shrm).

مع ملاحظة التمييز بين الأسم الملكي شهر(Shr) والأسم العام شهرم(Shrm)[28].

وتواجه الباحثون مشاكل كثيرة في معرفة وتحديد هذه الأسماء بدقة نظراً لعدم خضوعها لترتيب زمني دقيق .فضلاً عن عدم العثور على كشف بالأسماء كلها كي يتم عمل ترتيب لها بحسب الأقدمية والخروج بأستنتاجات منطقية حولها.كما تواجههم-أيضاً- مشكلة تحديد أسماء أقارب الحكام: الأباء والأخوة وغيرهم. بل أحياناً يحمل أخوان الحكام أسماء غير محددة. ولا يعني- مع ذلك- الأسماء المذكورة فيما سبق والمفصلة لدى العشيرة أو العشائر الحاكمة.

الهوامش والتوضيحات :-

(1) نيابيجو ليفسكايا؛ بيزنطا في الطريق إلى الهند. موسكو- لنينجراد 1957،ص415.

(2) وهو الإقليم الذي ما زال يحمل الأسم نفسه إلى الآن ، ويقع حالياً ضمن الأراضي العمانية .

(3) منشور هذا القانون في مجمع النقوش السامية الصادر في باريس عام 1929-1950م ، موسوم برقم RES 4337 . وقد أخذ النص من كتاب للباحثة السوفيتية نيابجو ليفسكايا : الشرق الأدنى وبيزنطة ؛ لينينجراد 1976م ، ص217-221 .

BLIJNI VASTOK, BIZANTAI, SLOVIAN, LININJRAD, 1976 (IN RASSION LANG) , REPERTOIRE D EPIGRAPHIE SEMITIQUE, PARIS, 1929-1950 .

(4) أنظر : مهيوب غالب أحمد ، العلاقات الدولية لبلاد العرب الجنوبية في الألف الأول ق.م ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ،جامعة موسكو ، كلية التاريخ ، قسم التاريخ القديم 1986م ص19-40 .

(5) كتب ديودور الصقلي أن البطالمة عنوا كذلك بالتجارة مع بلاد العرب الجنوبيين وبلاد بونت على شـــاطئ الصومال . إذ كان في قبضة العرب أغلب البضائع القادمة من الأقاليم النائية خاصة من الهنـــد . وكـــانت تصدر الأرز والعاج والأصداف واللآلئ والأصباغ وأنواع البهارات ((iii, 42-48)) ؛ أنظـــر أيضـــاً : عاصم احمد حسين ، دراسات في تاريخ وحضارة البطالمة ، القاهرة 1991م ، ص.214 .

(6) حسن صالح شهاب؛ فن الملاحة عند العرب . مركز الدراسات والبحوث اليمني-صنعاء-بـــيروت الطبعـــة الأولى ، ص39.

(7) المرجع نفسه؛ وكذلك د.جواد علي؛ المفصل في تاريخ العـــرب قبـــل الإســـلام.ج2؛بـــيروت؛ الطبعـــة الثانية؛ص22-26.

(8) أنظر : عبدالله الشيبه ، دراسات في تاريخ اليمن القديم ، مكتبة الوعي الثـــوري – تعـــز ، الطبعـــة الأولى 1999-2000م ،ص.18 .

(9) **Shitomi.on The Date of composion of the periplus maris Erythraei,A Stuth Arabiau Epigraph Evidence. Tokoyo-Bonco,34,1976,p.15-45.**

(10) عبدالله الشيبه ، دراسات .... ، المرجع السابق ، ص.18-20 ؛ د.جواد علي ، المفصل...، المرجع الســـابق ، ص26.

(11) Strabo xvi ,209– وكذلك جواد علي ، المفصل...، المرجع السابق ص44.

(12) انظر اسمهان الجرو، موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن القديم) ، عمـــان 1996،ص196.

(13) قسم أرثوسفين (276-194ق.م) بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام : العربة الصخرية وتظم القسم الشمالي مـــن شبه الجزيرة العربية (أي منطقة الأنباط) ، والقسم الأوسط هو ما سماه بالعربيـــة الصحراويـــة ، والقســـم الجنوبي وهو الذي سماه بالعربية السعيدة (بلاد العرب الجنوبية) . نقلاً عن حسن صالح شهاب في : أضـــواء على تاريخ اليمن البحري ، ص31 .

(14) انظر اسمهان الجرو ، موجز التاريخ السياسي ... ، المرجع السابق ، ص.196-197

(15) انظر ك. روبان ، الممالك المحاربة في كتاب : اليمن – في بلاد ملكة سبأ ، تعريب بدر الديـــن عروكـــي ، مراجعة ، يوسف محمد عبد الله ، دمشق 1999م ، ص180.

(16) انظر اسمهان الجرو ، موجز التاريخ السياسي .... ، المرجع السابق ، ص.201.

(17) يثل : إسم كان يطلق عن الحاضرة المعينية في تلك المرحلة ، وفي ما بعد أصبحت قرناو .

(18) Strabo xvi ,209– وكذلك حوراني ج.ف. ؛ العرب والملاحة في المحيط الهندي . نقلاً عن حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، المرجع السابق ، ص.40؛ جواد علي ، المفصل...، المرجع الســـابق ص.43،46.

(19) ذكر السبئيون في القرآن الكريم في سورة النمل الأيات 22-24.((لقد كان لسبأ في مسكنهم أيـــة جنتـــان عن يمين وشما..)) الأية 15 من سورة سبأ(34) .

(20) جاء ذكر السبئيين في : الإصحاح العاشر من سفر التكوين (فقرة 7) : أن سبأ من ابناء حام ، وفي مكـــان آخر من الإصحاح نفسه (فقرة 26) أن سبأ من بني يقظان من احفاد سام . وأشارت أســـفار أخـــرى إلى أرض السبئيين ومحاصيلهم التجارية . مثلاً في الإصحاح السادس (أرميا–فقرة 3) أن أرضهم تنتج اللبان .

(21) لوندين ا.ج السلطة في سبأ . مجلة مروى ، الصادرة عن معهد الإشتراق التابع لأكاديمية العلوم الســوفيتية (الروسية حالياً) لعام 1977 ص278–28أ.

(22) الإبيقرافية (المادة النقشية) وتعني علم دراســة النقــوش . وهــي مــأخوذة مــن الكلمــة اللاتينيــة (EPIGRAPJICA) .

(23) لمزيد من التفصيل انظر أفرام لوندين ، دولة مكربي سبأ (الأيوليم السبئي) ، دار العلـــم موســكو 1971م ،الفصل الثالث ، ص.79–135.

(24) لوندين ، السلطة في سبأ... المرجع السابق ص.280.

(25) المرجع نفسه،ص.280.

(26) فراترنيتيت (fratarnitite) : نظام انتقال السلطة بحسب الإخوان ، أي بحسب تسلســـل الإخـــوان (وربما بحسب الانتقال العشائري) .

(27) لوندين ، السلطة في سبأ ... ، المرجع نفسه،ص.279.

(28) المرجع نفسه ، ص.279 .